ـورج خضر المفارقة الكبرى

الآن قد اشتدّت غربتك تبدو أكثر توهجاً وأكثر وداعة (أرشيف)

المذهل عندك أنك في شيخوختك أسقطت الأرضيات ولم تسقط من ذاكرتك عبارة واحدة من الكتاب العزيز ومن المعرفة الجمّة التي ادّخرت، واصطفيت منها ما حسبته أساسيّاً «حتى التنفّس».
تذكّر بحبّ الفقراء في مناسبة وغير مناسبة. وكأنك بعدما شدّدت على معرفة الكتب طيلة حياتك رأيتها ساقطة ما لم تقترن بخدمة هؤلاء الصغار إخوة يسوع. وكأني بك ـ والتفسير لي بالنظر إلى حاجاتنا اليوم ـ تجدّد نهضة الكنيسة الأرثوذكسية بالانتباه الى العناية بالناس التي جاءت ضعيفة سابقاً، فيما قويت نزعة المعرفة عندنا. فرعاية الفقراء في دنيانا ما زالت مبعثرة، بدائية. والمعوزون كثر والأثرياء أكثر، وبينهما هوّة لا تردمها مؤسسة ولا تضافر جهود ولا ترتيب، وفقرنا إلى التواصل يجعل الفرد الأرثوذكسي برجاً وحيداً يتعبّد لفرادته. يكثر الأرثوذكس الناجحون في مؤسساتهم التجارية والصناعية والمصرفية، والمحتاجون عندنا كثر.
فكيف نفهم وصيتك؟ من العالم وفي العالم، ومن تاريخنا، لنا دروس، إذا تعلّمنا التواضع. آن الأوان للأرثوذكسيين أن يتواضعوا. هم يرتاحون للاهوت لامس قلب الله ولا يغيثون إخوانهم الصغار بما يحفظ كرامة هؤلاء ويؤمّن عيشهم من خوف العوز. والسؤال أيضاً لي: كيف نترجم حبّ الفقراء إذا ما نظرنا إلى الأوقاف الواقفة عند إرادات متحجّرة وسلطة صمّاء؟ وكيف نفتح قلوب الأديرة للعناية بالناس الذين جاء المخلص ليخدمهم، فصار الناس يخدمون الأديرة؟
فالصلاة ليست ابتهالاً وأدعية وبخوراً وزخرفاً وإنشاداً وطباعة كتب فحسب، هذه لها أوقاتها وأما الوقت الأوفر فهو للناس، لحبّهم، لتقديم الفرح والعزاء والشهادة لهم بأن الله محبة. والخدمة هي فعل المحبة المحسوسة. يخرج يوحنا الدمشقي أو الذهبي الفم من الذبيحة الإلهية قائلاً: «إني ذاهب إلى مذبح أفضل هو خدمة الآخر». حتى إذا انشغل من ترهّب استعداداً لملاقاة الرب في أي ساعة، يكون جاهزاً في حضرة الله ما دام في خدمة إخوته. لو نفعت الكتب لما جاء الرب كلمة متجسداً.
أراكَ في شيخوختك تردّد في مناسبة وغير مناسبة أن «أحبوا بعضكم بعضاً». تروي أن يوحنا الحبيب في شيخوخته لم يكن يقول غير ذلك، وعندما سئل قال: «هذا كل ما تعلّمته حين كنت على صدر المعلم». أراك انضممتَ إليهما وازدادت غربتك. تتألم بصمت من البغض والمكيدة والكذب والتلاعب. وتعيش على رجاء أن يتوب المخطئ ولا تتجاسر أن تواجه أن تحاسب ـ وما فعلت ذلك خفراً منذ شبابك ـ وإذا دفعك الغيارى على تصحيح المسار والمصير توكِل المهمّة الى من حضر، وترجو أيضاً أن يكونوا أهل ثقة ـ فبماذا نكافئ الرب عن رئيس كهنة يعيش على الرجاء ويبني على الثّقة؟ «جواباً حسناً لدى منبر المسيح المرهوب». أي جواب حسن والمشهد اليوم يسيء الى المسيح ويشكك الكبار والصغار؟ لكن المسيح أحب الخطاة وما دان وما حاكم وما حكَم. هنا أيضاً مفارقة؟ يضربون بعصاك وأنت لا تحمل حتى عكّازاً تتّكئ عليه في سيرك المتعب. يتحاكمون ويتخبطون في أمراضهم الجسدية والمطلوب واحد، «يا بنيّ أعطني قلبك». عادوا إلى العجل الذهبيّ، إلى قلوبهم الحجريّة، إلى القصور المجصّصة، والذي يأتي بعد أيام لن يجد مكاناً يسند إليه رأسه إلا الفقراء إلى وجهه من المتواضعين الذين رفعهم إليه بالرضى.
لم أرَ المسيح يلعن إلا الشجرة التي لم تعطِ ثمراً. الأرثوذكس اليوم غير مثمرين وهم قسمان: من يلهو بإنجازات مادية تجني له الربح المادي فيزهو ويتغطرس، ومنهم من يلهو بالطقوس والعبادات والإنجازات السلطويّة الروحية فيزهو ويتغطرس ويتسلّط.
السلطة والتسلّط يعميان أبصار الكثيرين ممن ظنّوا أنهم مختارون. يبنون ذلك على نهضة أرثوذكسية كنت وأترابك ـ منهم في رحمة الله ـ أعمدتها وما كنتم متسلطين، ما كنتم على سلطان. كنتم مقتدرين بالمحبة، بالخدمة، بالاعتراف بالصغير والكبير وقد جمعتنا بكم ألفة كبيرة. أحببتمونا، استمعتمونا، عاشرتمونا، «مالحتمونا». فحفظنا الودّ،

> الصلاة ليست ابتهالا وأدعية وبخوراً وزخرفاً وإنشاداً وطباعة كتب فحسب

> تكاد المحبة تكون معدومة في كنيسة تكاد تكون متمتعة بأسمى المعاني الروحية

وأحببنا المسيح بحنان أصواتكم المرتّلة، ورقّة كلامكم النورانيّ، وقربكم منا وسعة صدركم.
الويل لمن تأتي على يده العثرات، ماذا دهانا؟ من أين يأتي الهواء الأصفر؟ ماذا دهانا؟ هل تحجّرت القلوب معادية العالم؟ وهل صار الحرف قتّالاً؟ من أين تأتي الضجّة تلو الضجّة في أنطاكية؟
الغطرسة والتبجّح والتسلّط صفات باتت تنخر قي عمودنا الفقريّ. هل يُدافع عن الإيمان بالحجّة أم بالمحبة؟ كنيستنا ستنهار بغِيّها إن لم تتواضع وتتعلّم أساليب المحبة المُتجسّدة خدمة للعالم، للناس، خدمة للذين جاء المسيح ليخلّصهم.
يا ليتنا نتعلّم من الكنائس الشقيقة رعاية المسنين. مثلاً، وهبت عائلة مؤدية للكنيسة البروتستانية في رأس بيروت مبنى حوّلته على الفور منزلاً للمسنّين من الطراز الحديث. ونحن ليس لدينا منزل يؤوي كبير من كبارنا إذا أثقلت السنون كاهله.
يا ليتنا نتعلّم بساطة الكلام. يتبارى المتفوّهون بإتقانهم اللغة، يكتبون إرضاءً لضميرهم. يعتبرون أنهم أدّوا الشهادة بكلمات. أما همّ التبليغ فليس وارداً. ولا أحد يستمع لتلك السيدة التي تحارب في كفرحبو وحدها استمالة شهود يهوه والمعمدانيين للأرثوذكسيين للتخلي عن أرثوذكسيتهم.
نحن ننّمق الكلام، نقول «اترك لنا ما علينا كما نحن نترك لمن أخطأ وأساء إلينا». ولا نستطيب قول «اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نحن نغفر لمن أخطأ وأساء إلينا».لا يطلب الأرثوذكسي المغفرة من الإخوة ولا يحسب نفسه مخطئاً... أي غطرسة هي تلك وأي جبروت...
الضجّة تلو الضجّة، الإساءة تلو الإساءة، التسلّط والغطرسة، لا وداعة ولا تواضع، ولا إصغاء لبعضنا البعض. تكاد المحبة تكون معدومة في كنيسة تكاد تكون متمتعة بأسمى المعاني الروحية والفكر اللاهوتي.
نواجه اليوم خطراً أعظم، هو مرض التعالي والتفرّد والطاوسيّة، والتزمت والإدانة والحكم على بعضنا البعض. أين منها وداعة المسيح وتواضعه، وماذا فعلنا بوصيته «أحبّوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم»؟ اليأس بات يصرخ في حناجر المؤمنين.
دعوَتك إيّانا الى أن نرفع قلوبنا وألحاظنا إلى فوق تخلّص الجماعة من التركيز على الخطايا التي في الأسفل. هل تنفع دعوتك بأن نتدبر أمورنا بالرحمة والمحبة، أن نأتي الى الحياة المبدعة، فيتوب الخاطئ وتنهض الجماعة؟
من مسيرتك نحن استلهمنا مسؤوليتنا. لا يستطيع الأسقف أن يختصر الكنيسة وإن كان حافظ الإيمان فيها، وأتمنى أن أضيف حافظ المحبة الأولى. ترجمة الإيمان عمليّاً تستدعي كل المواهب وبحسب الظروف والاختصاصات. لا يُستبعد أحد. سمعت كلاماً عظيماً في جماعة «اللقاء الأرثوذكسي» مفاده أنه علينا أن نمارس «ثقافة إلغاء الذات» حتى تنمو الجماعة. أرجو أن يصغي أهل سلطة الكنيسة إلى جهود المؤمنين من أي جهة أتت، ليحتضنوها بوسع وفهم وبالحب الذي أوصينا به.
لكنّ الرب وعد وعداً صادقاً «أن يكون مع كنيسته وأبواب الجحيم لن تقوى عليها». وأراك كالسيّد هادئاً، كنائم فيما السفينة تتخبّط. نحن قليلو الإيمان نضطرب، أما أنت فقد صرت الى ملء الثقة بكلام ربك. ونظرت لنا مسيرة مرضيّة، فساهمت أيّما مساهمة بحمل السيّد يوحنا إلى «سدّة الصليب». معه، لن تغرق السفينة فالربّ في عين العاصفة ومنه النجاة الكثيرة والرحمة الغنية العظمى. فإن ما سمعته آذاننا وما رأته عيوننا من الأول بين الإخوة بشارة أنك ستتعزّى كثيراً، وتفرح لأنه مبارك هذا الآتي باسم الرب.
أيها السيّد عمود النهضة الروحية، وعميد الآباء المعاصرين، وعماد اللاهوت المستنير والملهم، لم أكن أجرؤ على التوجّه إليك على صفحات مكتوبة، وما كان لي حاجة به ونحن في خطاب وفي مخاطبة غير منقطعة منذ أربعين سنة لو لم تُنشر أخبار رذائلنا وأخطائنا على صفحات وسائل التواصل الإلكتروني المتنوعة التي لا قِبَل لك بها ولا تعرف عن طرقها شيئاً. ولم يخطر ببالك أن الكلمات التي هي الأداة المشتركة بين الله والبشر وبين الناس تُستعمل كأسلحة للقتل والدمار. وقد صارت مقالاتك الأخيرة جواهر نادرة الثمن، متلألئة شفافة، نوراً من نور. وددتُ أن أحتفل بوجودك بيننا وأشكر الله على دوام عافية قلبك وأطلب إليه أن يساعدك على حمل الصليب ويتوّجك بحسب قول الرسول بولس بأن الله شاء «أن يجعل رئيس خلاصهم بالآلام كاملاً». بعدما أعطيتنا معرفة كبيرة، علّمنا أن نرفع عيوننا إلى فوق، إلى الملك الآتي، إلى الإبداع بالوداعة والصدق والخدمة حتى لا نعثر بحجر تفاهات تكبّرنا.
أعايدك سيّدي، متهللة بحضورك بيننا، وأعاهدك على مبرّات الأطهار أنني ورفقة الطيبين سنحفظ الإخلاص ونصنع في الأرض عدلاً وسلاماً.

* باحثة وأستاذة جامعية